في بيتنا حامض حلو قراءة في ديوان

في هذه القراءة للديوان الشعبي حامض حلو للشاعر الجميل ناجي بن داود الحرز حاولت أن أتناول بعض النواحي الجمالية والكلمات الشعبية التي وردت في بعض قصائد الديوان.

هذا الديوان الذي لا تمسك مشاعرك حينما تقرأه أن لا تضحك. بل لا تكاد تخلو قصيدة من وقفات مضحكة

شاعرنا قد استفرغ كل وسعه ليخرج لنا هذا الديوان الذي يعتبر من الوثائق التي حفظت لنا الكلمات الشعبية والمحلية في قالب مضحك ومتحرك.

سيرى القارئ لهذا الديوان كيف طوع ولين شاعرنا الكلمات الفصحى إلى كلمات عامية محلية وشعبية، ولو أردنا تشبيها لملكة هذا التطويع، أوردنا قوله سبحانه لنبيه داود عليه السلام" وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ " لحق لنا أن نقول لأبن داود: " وألنا له الكلام أن اعمل سابغات من القصائد وقدر في السرد".

- نراه قد لين الكلمة في أي صيغة من صيغها اللغوية من فعل واسم وصفة..... و...و...فهي طوع يديه. والأمثلة على ذلكِ كثيرة فمن باب المثال لا الحصر: تـْمزّ، تـْوِزّ، كَـفـَخْ، تـلوطـخ، أوْزنه، ومسلية، ويترأء للقارئ أن ما نـيب، قـرقة، اللولاش، بخـوش، ما هـقِـيـنـاك، اشـبـتـقـول، بربرة، قـيلولة.....وهكذا.

- ظاهرة أخرى: هي ظاهرة الرصد واستغلال الحدث، فلا تكاد ترى قصيدة إلا ولها حكاية وقصة في هذا الديوان، يقولبها ويرسمها في لوحة شعرية ظاحكة وساخرة تدخل البهجة والسرور على قلب قارئها.

- من الظواهر البارزة أيضا في هذا الديوان، أن قصائده جاءت ليست بالقصيرة المقلة ولا بالطويلة المملة، فإن كانت قصيرة فهي تصيب الهدف والغرض، وإن كانت طويلة ففيها تكامل النسق والحدث.

- حفظ الكلمات الشعبية وليس هذا فقط، بل وحفظ بعض الأمثال الشعبية وستجدها متناثرة بين قصائد الديوان.

- قال شاعرنا في قصيدة " لاقيتها ":

أنا الذي لو قلت بيتين ... كل البنات ارياقها تـْمزّ

فكلمة تـْمز مأخوذة من المز ومعناه: مزَّ الشَّرابُ :اشتدّت حموضتُه، صار طعمُه بين الحُلو والحامض فهو مُزّ. والمز هو مص الشيء ورشفه.

فشاعرنا هنا واثق من نفسه بأنه حينما ينشد بيتين فسوف تشرأب أعناق البنات وتتبالع أرياقها من حلاوة الحامض حلو.. ولذلك نراه يخاطبها في نهاية القصيدة:

روحي اسألي ليل المحبّين ...قالت: عرَفْتك ناجي الحرز

- ومن قصيدة " يوم الوصول ":

إشخانت اللي ما يسيد وما يبيد؟ ... سجّل اسمه وحط تحت اسمه: مهبول

وجذر كلمة إشخانت الشعبية: خن ومنها خان، وخانته رجلاه لم يقدر على المشي، وخانه ظهره: ضعف.

وجاءت هنا بمعنى شفايدته أي ما هي فائدة من لم يسيح في الأرض ويطلع على أحوال المجتمعات، فإن لم يفعل ذلك فـَيـُستـَحق أن يسجل اسمه في ديوان المهابيل.

- وفي قصيدة " قرقة" نقرأ:

بعض الأوادم عندهم حرقه

للقيل والقلقال والقَرْقه

يشيل ويحط وينزل ويرقه

بعشرين كلمة ما عليهم زود

ثم يقول:

وتعال شوف الصفقة واللولاش

جنّ احنا في فرقة سمر عمّاش >> "الجيم في جنّ تحتها ثلاث نقط"

ما باقي الا النقطة والشوباش

وهز الوسط بين الزمر والعود!!

والقرقة مأخوذة من قَرَقَ: (فعل) وقرَقَ يقرُق ويَقرِق، قَرْقًا، فهو قارق. قَرَقَ الرَّجُلُ: هَذَى، أَيْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ مَعْقُولٍ لِمَرَضٍ أَوْ جُنُونٍ.

وأما كلمة لولاش: فهي الزغرودة، والزغروتة، والزغروطة، أو الهلهولة وتسمى أيضاً اليباب أو، الغطرفة في الخليج العربي والزغاريت جمع التزغريته في المغرب العربي، هي صوت الولولة، وتصدر بالتحريك الجانبي للسان داخل الفم على أن يكون متتابعاً، مع إصدار الصوت بإخراج الهواء من الحلق بقوة وقد تتم الاستعانة باليد، ويكون الصوت الناتج هو زغرودة " الولاش"

وأما كلمة شوباش: وإن بحثت عن معنى كلمة "شوباش" ستجد أن أصل هذه الكلمة تندرج تحت قائمة كلمات قاموس التراث الشعبى المصرى. وتعود إلى اللغة الهيروغليفية القديمة، ويقال عنها رأيان الأول يقسم الكلمة إلى جزأين "شو" بمعنى "مئة"، وباش بمعنى "فرحة وسعادة"، وعندما تقوم بجمع الجزأين ستجدها "مئة فرحة" لذلك كانت تقال فى الأفراح الشعبية " شوباش يا أهل العريس " ويقولون " شوباش من يعطي النقوط " والنقوط المال يعطى لقارىء المولد في الأفراح

أما الرأى الثانى فيرجعها إلى تماثيل "الشوباشى" وهى تماثيل صغيرة كانت توضع فى قبر الميت لترديد الدعاء له حتى موعد البعث، ولأن هذه الكلمة كانت تقال بنبرة أسف وحزن تم تداولها عبر العصور حتى أدخلتها الحارة المصرية ضمن قاموس كلمات المشاجرات، فكل يقولها حسب السياق الذى يقصده.

- " عضنّي قرّوص"

أما عاد هذه خوش قصيدة، يقول في مطلعها:

عضّني قروص في بيت الطويل ... والفخذ مني وَرَم من عضّته

إلى أن يقول:

وافرشوه بخوش سجّاد بديل ... والدواشق والمساند حاطته

ومعنى كلمة "خوش" أي الشيء الطيب والجيد. وخُشْ في قولِ الأعْشَى: مَعَرَّبُ خُوش، أي الطَّيِّبُ. وجذر الكلمة لها معاني كثيرة تطلب من معجم المعاني الجامع.

وتأتي بالفارسية خوش آمديد أي على الرحب والسعة، وإن قلنا خوش دهن أي دهن لطيف وإن قلنا خوش ذوق أي ذوق لذيذ...وهكذا.

- ومن قصيدة: " سلام يا مضروب":

تستحي بالحيل وتغض النظر ... وما تخز الطير من خلف وأمام

وللنهد ما يْمزّ ريجك لو كبَر ... وما تبالي وحالتك تصبح عدَام

وكلمة بالحيل هنا بمعنى كثير وهبشه، و الحَيل: بالفتح (اسم) وجمعها: أَحيال، و حُيُول

والحَيْلُ: هو الماءُ المتجمِّع في بطْن الوادي، وتأتي الحَيْلُ بمعنى القوّة والمقدرة، وما له

حَـيـْل اللـّهُمَّ ذَا الحَـيـْلِ الشَّـدِيدِ (حـديث)، وعلى حـيله: قائم، منـتـصب، وشُـدَّ حَـيـْلـَكَ: شُدَّ عَـزْمَكَ وَقُـوَّتَـكَ.

وتخز الطير هنا أي تمعن بالنظر المركز، والطير هنا تعبير عن المرأة. أي انـك تـستحي كثيرا لدرجة انك لا تـركز بالنـظر على الـنساء ولا تـجسها من فـوق إلى تحـت إلى آخر المعاني. وما هـنا للنفي، ولكن الشاعر طبعا يقصد عكس ذلك.

وكلمة " ريـجـك " أصلها ريـق وتـنطق بالعـامية " ريـج ". والـرِّيقُ: ماءُ الفـم واللـُّعاب. وجاءَ على الرِّيـقِ، وعلى رِيـق نفْسـِهِ: لم يَطـعمْ شيئا . وبلَـع ريقَه: تـوقـف قـليلاً للرَّاحة أو لالتـقاط أنـفاسه، وتـقال عـادة في مـواقف الإحـراج أو الخوف.

- ومن قصيدة: " الكديش ":

وانـت مـثل النار في راس الـعـلم ... عارفـيـنك مـثل خـبزِ يـْدينه

والكـديش هـو الـفرس غـير الأصيل. وكـَدشَ الشيء قـطعه بأسنانه. والكَـدَّاشُ: هـو الشحاذُ

والكَـدَّاشُ: المـُكَـدِّي بلغة أَهـل العـراق.

وكلـمة " خـبزِ يـْدينه ": هذا التـعـبيـر مجـازي يقال: فلان خـُبـْز يـدي، أو أنا خابزه وعاجنه كناية عن أنني أعرفه حَقَّ المعرفة كما لو كنت عملته بيدي، وهو مثل أو تعبير اصطلاحي جرى مجرى المثل، وشاع استعماله عند الناس بهذا المعنى المجازي وله صُوَر أخرى من النطق حسب اللهجات. وهذه التعبيرات إفرازات لتجارب الحياة وتختلف من مجتمع لآخر.

- ومن قصيدة " قالوا تجوز؟!!:

ما يـزول طبعه لو تـزول الجـبالا ... حـّمال رايات الـبخل في هَلِ الشـرق

يحاول شاعرنا بنقد بعض الظواهر الغير حسنة في المجتمع المحيط به ويدعم نقده بالأمثال الشعبية السائدة ومن بين تلك الأمثال ما ساقه الشاعر في بيته المذكور.

المثل يذكر بأوجه متعددة والمعنى واحد، فهو يذكر هكذا " يزول جبل ولا يزول طبع "؛ والمقصود بالطبع هنا طبع الشخص وما تعود عليه، فلكل فرد طباع يكون بعضها حسناً وبعضها غير حسن.

وأيضاً يأتي المثل هكذا "حدّر جبل ولا تحدّر طبع"، ويعني سهولة هدم وتسوية الجبل على ضخامته وصعوبته، في حين يصعب تعديل طبع شخص تعود عليه، ويقال في هذا الشأن أيضاً: "أبو طبيع ما يخلي طبعه"، وأيضاً "عود عادة ولا تقطع عادة"، والعادة هنا هي الطبع القديم في الشخص ويبدو أن حرص المجتمع على سلامة أفراده من الطباع غير المرغوب فيها هو الذي جعله يؤكد حسن اختيار العادات وتجنب السيئ منها، فكثرة الأمثال الشعبية التي تتجه لشيء معين تؤكد اهتمام المجتمع بهذا الشيء أياً كان، والعادات من أهل ما يسير المجتمع ويتحكم في أسلوب حياته، فلها تأثير قوي ولهذا يراد لها أن تكون عادات إيجابية حسنة نافعة، ففي حالة وجود عادة سلبية وانتشارها على مستوى عدد قليل أو كثير، فإنها تسبب للمجتمع مشكلات كثيرة لا يصبر عليها ولا يقوى على التخلص منها بسهولة؛ لأن من طبيعة العادة والطبع التمكن من الشخص والتحكم فيه، وهذا لا يعني أننا لا نقوى على التحكم في العادات وتغيير الضار منها، ولكن المثل الشعبي جاء ليحذر ويبالغ أحياناً من أجل أخذ الحيطة.

- ومن قصيدة " عجل الحمر":

يوم الذي عِجْلِ الحَمَرْ ... عزّم يدشّ البورقة

وضف شاعرنا ثلاث كلمات شعبية في شطر واحد وهي:

عزّم: وهي الإقدام بشدة وارادة قويه وبشوق

يدشّ: ومعناها دخل في، والأصل دَشَّ: (فعل)

دشَّ / دشَّ في دَشَشْتُ ، يَدُشّ ، ادْشُشْ / دُشَّ ، دَشًّا ، فهو داشّ ، والمفعول مَدْشوش ودشيش، دَشَّ الخَطِيبُ فِي كَلامِهِ : أكْثَرَ مِنْهُ ، دَشَّ فِي الأَرْضِ : سَارَ فِيهَا، دَشَّ الحَبَّ: جَرَشَهُ.

البورقة: وهي من الكلمات المحلية الشعبية وكانت البوارق قديما توجد في البيوت وفيها البقر والغنم وكان اهلونا يربونها ويستخدمون حليبها ولبنها ويصنعون منها الأجبان والروب

الزبادي، وتسمى أيضا بحظيرة البقر والغنم وتسمى بالزريبة والسمادة أيضا.

- ومن قصيدة " جنز ":

يلعن آبو الجنز واللي صممه ... مَـرمّـر قلوب البشر تصميمه

وكلمة مَرمَر تعني بَـهـْـدَلَ، وفي قاموس المعاني: مَرْمَرَ الْمَاءَ: جَعَـلَـهُ يَمُرُّ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. مَرْمَرَ الوَلَدُ: غَضِبَ.

والمعنى ما قلناه أولا، وكلنا يعلم بهذه الكلمات التي تأتي من عمق تاريخ العراق على لسان ناظم الغزالي:

ميحانه ميحانه

غابت شمسنا الحلو ما جانا

حيّك بابا حيّك .. ألف رحمة اعلى أبيّك

هذولا العذبوني .. هذولا المرمروني

و على جسر المسيّب سيّبوني

- ونختم قراءتنا لهذا الديوان الجميل بهذه الأبيات لقصيدة " قيلولة ":

لا تتصل بي ساعة القيلولة ... ترى البراغي كلها محلوله

والــناس يابن الــناس في هالساعة ... تــصدق عــليــهــم كــلمةٍ مــقــيولة

اللي مْــسَــرح عجــلته في الصكة ... واللي مطــير في الــسما بلــبــولــه

اشتملت هذه القصيد على قصرها على عدة كلمات محلية ككلمة محلولة ومقيولة وكلمة مْــسَــرح وصكة، كما اشارت إن لم يخطئنا التعبير إلى مثل مشهور في هذا المقطع " اللي مسرح عجلته في الصكة "، وهذا المثل هو: " إذ طلعت تجيك حمارة القايلة ".

عادة ما يكون الناس متعبين في فــترة القــيــلولة وهي نومةُ نصفِ النهار، أو الاستراحة فيه وإِن لم يكن نوم.

لكن الشاعر وصف بهذا الوصف الدقيق ترى البراغي كلها محلولة فهو استخدم مفردات الآلة وعادة إذا ما انحلت براغي الماكنة فإن أجزائها تــتــفــكك فهو استــعار هذا المعنى ليوضح كيف يــتــفــكك بــدن الإنسان من الــتعــب.

ورجعا على الــقــيلولة التي كان آباؤنا يخوفــونــنا بها. من منا لم يهــدد في الصغــر بهذا الــمخلوق الشهــير الخرافي "إذا طلعت تــجــيــك حمارة الــقــايــلة". وربما اراد شاعــرنا هذا المعنى.

طبعا هذه الحَــمَّارة لــيست بحــيــوان ولا يحزنون إنما هي أي " حمّارة القيض " بتشديد الميم، ولقد ورد في بعض خطب أمير المؤمنين ما يوضح هذا المعنى: " إن أمرتكم بالمسير إليهم في الحر قلتم حمارّة القيظ أمهلنا حتى ينسلخ الحر) أي شدته. وإنما كان أهــلــونا يخوفــنا بها حرصهم على سلامتنا من الحر واهل السوء في مثل هذه الساعات وهي من ساعات الغفلة والهدوه. ومِثــْل هذا المَــثَــل: : لا تجيك أم السعف والــليف"، وما هي أم السف والــليف؟ إن هي إلا عمتنا النخلة!!.

حقا هو ديوان جميل خفيف طريف اسعدني اقتنائه وقراءته لما حواه من طرائف وظرائف ونقد لطيف ووخز خفيف.

نشكر الشاعر الجميل ناجي بن داود الحرز على هذه المائدة الأدبية الخفيفة